المجمع 16 (2021/1442)، 417-432

مصطلح "شجاعة العربية" بين ابن جني وابن الأثير

ناصر حسن يعقوب[1]

عمر صبحي جابر[2]

ملخّص:

يتناول البحث مصطلح "شجاعة العربية" عند اللغوي ابن جني والناقد ابن الأثير. إذ يبدأ بدراسة المصطلح بينهما، ثم منهجهما في معالجة الموضوعات التي تندرج تحت باب "شجاعة العربية". ويرصد البحث في خلاصته كيفية تناولهما لشجاعة العربية.

مقدّمة:

يقصد ابن جني بشجاعة العربية دلالة لغوية، وهي "الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف"[3]. أمّا ابن الأثير فيقصد بها دلالة بلاغية وهي الالتفات. ويُعدُّ ابن الأثير الالتفات خلاصة علم البيان، "ويكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه يُنتقل فيه عن صيغة إلى صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضٍ إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضٍ، أو غير ذلك مما يأتي ذكره مفصَّلًا"[4]. ويعالج ابن جني الحذف؛ لأنّ العربية تميل إلى الإيجاز "إذ كانت لغة قوم يغلب عليهم الذكاء، ويكفيهم في الفهم الإشارة والرمز، وطالما حمدوا الإيجاز، وتواصوا به. وأكثروا

---

[1] جامعة البلقاء التطبيقية - كلية الحصن الجامعية- الأردن.

[2] وزارة التربية والتعليم الأردنية.

[3] ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**، ج.2. ط.4. تحقيق: محمد النجار. (الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة، 1999)، 362.

[4] ابن الأثير، ضياء الدين. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة. (دار نهضة مصر: القاهرة)، القسم الثاني، 168.

منه فقالوا في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز: "فلان يُفل المحز، ويصيب المفصل يعنون أنه يقصد إلى معناه قصدًا، فضربوا الجزار الحاذق في صنعته مثلًا للمصيب الموجز في كلامه وسُمع جعفر ابن يحيى يقول لكتّابه: إنْ استطعتم أنْ تجعلوا كلامكم مثل التوقيع فافعلوا"[1].

أمّا التقديم والتأخير، فهو أسلوب مخالف في الأصل لترتيب كلام العرب يستعمل لأداء مقاصد معينة. وكذلك الحمل على المعنى، فهو مخالف لترتيب كلام العرب وأساليبهم، يستعمل لمقاصد معينة. فأسلوب الحمل على المعنى "غورٌ في العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منثورًا ومنظومًا، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصوّر معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد"[2]. وبما أنّ الشجاعة تعني المضاءة والجرأة والإقدام[3]، فإنّ ابن جني يقصد بشجاعة العربية إقدام وشجاعة من وضع هذه اللغة، لأنّ اللغة ليست ذلك التركيب اللفظي الظاهر، وإنّما ثمّة تركيب آخر غير ظاهر في النص كالحذف. كما أنّ اللغة تحوي بعض الأساليب المخالفة للقاعدة العربية المعروفة كالتقديم والتأخير والفصل والحمل على المعنى، مما يعكس شجاعة عقول أصحاب اللغة واتساعها وذكائها؛ لأنّهم كانوا يقصدون بالدرجة الأساس إيصال المعنى.

ويتوافق مفهوم ابن الأثير لشجاعة العربية مع مفهوم ابن جني؛ لأنّه يقصد بالالتفات ذلك التحوّل الذي يحدث أثناء الخطاب المخالف لأصل كلام العرب، فالأصل في الضمائر مثلًا أنْ تُطابق ما تعود عليه، فإذا كان ما تعود عليه مخاطَبًا عُبِّر بضمير المخاطَب، وإذا كان غائبًا استعمل ضمير الغياب، وأمّا إذا كان متكلِّمًا فإنَّه لا بدَّ من استخدام ضمير المتكلِّم، وكذلك الأفعال. وبما أنَّ أصحاب اللغة هدفهم إيصال المعنى، فإنَّهم وبسبب الجرأة والشجاعة يتّسعون ويغيّرون في كلامهم وإنْ خالف الأصل. ويشير ابن الأثير لسبب تسميته

---

[1] ناصيف، علي النجدي. **من قضايا اللغة والنحو**. (مكتبة نهضة مصر: القاهرة)، 83.

[2] ابن جني. **الخصائص**. 413/2.

[3] ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم . **لسان العرب**. (دار صادر: بيروت)، مادة (قرأ).

بشجاعة العربية بقوله: "لأنَّ الشجاعة هي الإقدام، وذاك أنَّ الرجل يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورّد ما لا يتورّده سواه، وكذلك الالتفات في الكلام"[1]. كما يشير ابن الأَثير إلى بُعد آخر مقارنًا اللغة العربية بغيرها من اللغات، فاللغة العربية "تختص دون غيرها من اللغات بهذا النوع ممّا أكسبها الجرأة والشجاعة"[2].

وأمّا البعد الآخر لمفهوم شجاعة العربية، فيرتبط بمن يتصدّى لشرح اللغة وبيانها، فقول ابن جني في أسلوب الحمل على المعنى: "غورٌ في العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح"[3]، يشير إلى ما يتصدّى لهذه اللغة، فعليه أنْ يكون عالِمًا بأسرارها ورموزها، ليستطيع شرحها وبيانها وكشف جمالياتها؛ لأنَّ اللغة ليست ذلك التركيب اللفظي الظاهر البسيط التي تُسلِّم قيادتها لأيّ شخص، وإنّما تُسلّم معناها للعالِم المتمرِّس الشجاع الذي يستطيع سَبْر أغوارها واكتشاف مكنوناتها الجمالية، ويدلّل ابن الأثير على هذا المعنى، بقوله: "واعلمْ أيّها المتوشح لمعرفة علم البيان أنّ العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلّا لنوع خصوصيّة اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلّا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على أسرارها وفتّش عن دفائنها"[4].

تأخذ شجاعة العربية دلالتين مختلفتين: فهي في الغالب تأخذ دلالة لغوية عند ابن جني؛ لأنّه كان معنيًّا أكثر بالجانب اللغوي. وبلاغيّة عند ابن الأثير؛ لأنّه كان معنيًّا أكثر بالجانب البلاغي؛ لذلك اختلفت الدلالة لاختلاف المرجعية لديهما. كما أنّ الفارق الزمني بين ابن جني (ت 392) وابن الأثير (ت 637) بعيد جدًا. إضافةً إلى أنّ طبيعة منهجهما في دراسة ما يندرج تحت باب شجاعة العربية مختلف جدًا؛ لأنَّ هدفهما مختلف. لذلك سنتناول ابن

---

[1] ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني، 168.

[2] **ن.م.**، 168.

[3] ابن جني. **الخصائص**. 313/2.

[4] ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني، 180.

جني وابن الأثير بدراسة منفصلة، وبعد ذلك نرصد في خلاصة البحث كيفية تناولهما لشجاعة العربية.

ابن جني: موضوعات شجاعة العربية:

الحذف لدى ابن جني "حذف الجملة والمفرد (اسم وفعل) والحرف والحركة"[1]. ويُعدّ الحذف عند ابن جني "ضربًا من الاتساع"[2]. ويعالج الحذف معالجة لغوية إذ يعمد إلى التأويل اللغوي، ويفترض وراء النص المكتوب نصًّا آخر، يتمّ استجلابه بناءً على بعض معطيات النص المكتوب كالمعنى أو الحركة الإعرابية. ويتداخل مفهوم الحذف والتقدير عند ابن جني، فحينما يتحدّث عن حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مكانه، يقول: "ومنه قوله –عزّ اسمه-: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾[3] أي أهلها"[4].

وفي الحذف "يتمّ افتراض أبعاد في النص غير موجودة فيه، ويصل النحاة من هذا الافتراض إلى موقف يتصوّرون فيه أنّه يوفّق بين الشروط التي تفرضها القاعدة النحوية. وبين النصوص التي تتجافى عن تلك الشروط ولا تطبّقها"[5]. ولذلك فإنّ التأويل عند ابن جني لظاهرة ما أو صورة لغوية، لتصبح العبارة المؤولة في صورة أخرى غير العبارة الأصل لإثبات صحة العبارة التي تبدو متعارضة مع قواعده[6]، إذ يقول: "وأما قوله تعالى ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[7] فيمن قرأه بالنصب فيحتمل أمرين: أحدهما أن يكون الفاعل مضمرًا، أي

---

[1] ابن جني: **الخصائص**. 362/2.

[2] **ن.م.**، 264.

[3] **سورة يوسف**: الآية 82.

[4] ابن جني. **الخصائص**. 264/2.

[5] أبو المكارم، علي. **أصول التفكير النحوي**. (دار القلم. بيروت. 1973)، 281.

[6] انظر: جلال شمس الدين. **التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيره عند البصريين: دراسة إبستمولوجية**. (مؤسسة الثقافة الجامعية. الإسكندرية. 1994)، 137-149.

[7] **سورة الأنعام**: الآية 94.

لقد تقطّع الأمر أو العقد أو الود –ونحو ذلك- بينكم. والآخر (أن يكون) ما كان يراه أبو الحسن من أن يكون (بينكم) وإن كان منصوب اللفظ مرفوع الموضع بفعله، غير أنّه أقرّت نصبه الظرف وإن كان مرفوع الموضع، لاطّراد استعمالهم إيّاه ظرفًا"[1].

أمّا التقديم والتأخير، فهو على ضربين: "ما يقبله القياس كتقديم المفعول به على الفاعل تارة، وعلى الفعل الناصبة أخرى والظرف والحال وغيره. والآخر ما يسهله الاضطرار"[2]. ويقصد بما يسهله الاضطرار الشعر. يلجأ ابن جني في التقديم والتأخير إلى التأويل اللغوي العقلي، إذ يستشهد ويتحدّث عن الشواهد التي خرجت عن القاعدة العربية، فيلجأ لتأويلها بإرجاعها إلى صورة افتراضية يفترضها، لكي يعلّل بها إثبات صحة العبارة أو الشاهد التي تبدو متعارضة مع قواعد اللغة، "وهذه الدعوى تهدف إلى تمكين القواعد النحوية المقننة للترتيب بتخريج ما يختلف معها تخريجًا ينفي عنها التناقض ويبعد عن نصوصها الاضطراب"[3].

كما يسم بعض الاستعمالات اللغوية بالقبيح وغيره بما يتلاءم مع التصور النظري لديه (القاعدة العربية)، إذ يقول: "ولا يجوز تقديم الصلة ولا شيء منها على الموصول، ولا الصفة على الموصوف، ولا عطف البيان على المعطوف عليه، ولا العطف الذي هو عطف نسق على المعطوف عليه، إلّا في الواو وحدها، وعلى قلّته أيضًا نحو قام وعمر زيد. وأسهل منه ضربتُ وعمرًا زيدًا؛ لأنّ الفعل في هذا قد استقلّ بفاعله، وفي قولك: قام وعمر عمرو وزيد؛ اتّسعت في الكلام قبل الاستقلال والتمام. فأمّا قوله:

ألا يا نخلةً من ذات عِرْق عليكِ ورحمةُ الله السلامُ

---

[1] ابن جني. **الخصائص**. 372/2.

[2] **ن.م.**، 384.

[3] أبو المكارم، علي. **أصول التفكير النحوي**، ص335.

فحملته الجماعة على هذا، حتى كأنّه عندها: عليك السلام ورحمة الله. وهذا وجه؛ إلا أنّ عندي فيه وجهًا لا تقديم فيه ولا تأخير من قِبَل العطف. وهو أن يكون (رحمة الله) معطوفًا على الضمير في (عليك)، وذلك أن (السلام) مرفوع بالابتداء، وخبره مقدَّم عليه، وهو (عليك) ففيه إذًا ضمير منه مرفوع بالظرف، فإذا عطفت (رحمة الله) عليه ذهب عنك مكروه التقديم"[1].

أمّا ما عجز ابن جني عن تأويله تأويلًا لغويًّا عقليًّا يتلاءم مع تصوّره النظري للقاعدة العربية، فقد أدخله في باب الضرورات الشِّعرية، بمعنى أنّه أعطى للشِّعر رخصًا لم يعطها لغيره، وذلك لضرورات الشِّعر من وزن وقافية ومعنى وسمو المبدع وتعجرفه، إذ يقول: "ومن ذلك قوله:

فأصبَحَتْ بعد خطّ بهجتها كأنَّ قَفْرًا رسومَها قلما

أراد: فأصبحت بعد بهجتها قَفْرًا كأنَّ قلما خطّ رسومها، ففصل بين المضاف الذي هو (بعد)، والمضاف إليه الذي هو (بهجتها) بالفعل الذي هو (خطَّ)، وفصل أيضًا بـ (خطّ) بين (أصبحت) وخبرها الذي هو (قفرًا)، وفصل بين كأنّ واسمها الذي هو (قلَّما) بأجنبيَّن: أحدهما قفرًا، والآخر: رسومها؛ ألا ترى أنّ رسومها مفعول خطَّ الذي هو خبر كأنَّ، وأنت لا تجيز: كأنَّ خبزًا زيدًا آكل. بل إذا لم تُجِز الفصل بين الفعل والفاعل على قوّة الفعل في نحو كانت زيدًا الحُمَّى تأخذ، كان ألّا تجيز الفصل بين كأنّ واسمها بمفعول فاعلها أجدر.

نعم وأغلظ من ذا أنه قدَّم خبر كأنَّ عليها، وهو قوله: خطَّ، فهذا ونحوه ممّا لا يجوز لأحد قياس عليه. غير أنَّ فيه ما قدمنا ذكره من سموّ الشاعر وتغطرفه، وبَأْوه، وتعجرفه. فاعرفه واجتنبه"[2].

[1] ابن جني. **الخصائص**. 388/2.

[2] **ن.م.**، 395/2.

وكذلك قوله: "والفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وحرف الجر قبيح كثير؛ لكنه من ضرورة الشاعر"[1]. وقوله: "فلم نجد فيه بدًّا من الفصل؛ لأن القوافي مجرورة"[2].

أمّا أسلوب الحمل على المعنى، فقد بقي ابن جني متّسقًا مع منهجه في تعليله اللغوي العقلي، وفي افتراضه لتركيب لغوي خلف التركيب اللغوي الظاهر، إذ يرى "أنّ العرب إذا حملت على المعنى لم تكد تراجع اللفظ"[3]. ويتداخل مفهوم الحمل على المعنى مع الحذف والتقدير لديه، إذ يقول في تأنيث المذكَّر: "وقالوا في قوله سبحانه ﴿إنّ رحمة الله قريب من المحسنين﴾[4] إنّه أراد بالرحمة هنا المطر"[5]. "وقول الشاعر:

يا ليت زوجك قد غدا متفلِّدًا سيفًا ورمحا

أي وحاملًا رمحًا: فهذا محمول على معنى الأول لا لفظه"[6].

أمّا التحريف، فيقصد به دلالة صرفية وهو ما يحدث في الكلمة من تغيرات صوتية وصرفية، لذلك فإنه يدلِّل على هذه التغيرات التي تحدث في الصيغ عند إعادة تقليبها أو تركيبها، كقولك فيما يغيّره النسب قياسًا: نمر نمري والسماعي خراسان خُرْسِي[7]. وكذلك القلب كقولهم: أطيب: أيطب، وفي اكفهرَّ: اكرهفّ. والحذف في الحرف كقولهم في: لا بَلْ، لا بَنْ، وقمَّ بدلًا من ثُمَّ، وسوْ أفعل وسف أفعل بدلًا من سوف أفعل[8].

---

[1] **ن.م.**، 406.

[2] **ن.م.**، 408

[3] ابن جني. **الخصائص**، ص422

[4] **سورة الأعراف**: الآية 56.

[5] ابن جني. **الخصائص**، ص414

[6] **ن.م.**، 433

[7] انظر: **ن.م.**، 442

[8] انظر: **ن.م.**، 443-444

وكان ابن جني في كتابه "المحتسب" يوجّه القراءات القرآنية الشاذة توجيهات صوتية وصرفية في أغلبها فيما يتعلَّق بالالتفات، وفي مواضع قليلة كان يستنبط أغراضًا دلالية وبلاغية للالتفات، ففي تعليقه على قراءة الحسن لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾[1] يقول: "إنه ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[2]، ... وكأنه -والله أعلم- إنما عدل فيه عن الخطاب إلى الغيبة، فقال: (يرجعون) بالياء؛ رفقا من الله (سبحانه) بصالحي عباده المطيعين لأمره. ... فصار كأنّه قال: يجازَون أو يعاقبون أو يطالبون بجرائرهم فيه، فيصير محصوله من بَعد، أي: فاتقوا أنتم يا مطيعون يوما يعذَّب فيه العاصون"[3]. فالسر البلاغي في هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ترفّق الله بالمؤمنين بدلا من صريح مخاطبتهم في مجال الوعيد والإنذار.

ابن الأثير: موضوعات شجاعة العربية:

يقسِّم ابن الأثير الالتفات إلى ثلاثة أقسام:

أ- في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة:

يبحث في هذا الأسلوب عن المقصد البلاغي الذي قصدت إليه العرب من التغيير في هذه الصيغة اللغوية، فيلجأ إلى تأويل المعنى البلاغي الجمالي بتفسير الخطاب وشرحه.

ويورد بداية رأي الزمخشري في هذا الأسلوب، الذي يرى فيه أنّه "يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب، تَطريةً لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه"[4]. ويرد على الزمخشري بأنّه لو سلّم بكلامه لكان هذا الأسلوب مقتصرًا على "الكلام المطوّل،

---

[1] **سورة البقرة**: الآية 281.

[2] **سورة يونس**: الآية 22.

[3] ابن جني، أبو الفتح عثمان. **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، (المكتبة الوقفية، 2009) waqfeya.com، ج.1.، 145.

[4] الزمخشري، محمود بن عمر. **الكشاف**، ط.3، (دار الكتاب العربي: بيروت،) ج.1.، 14، books.rafed.net

ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك، لأنّه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة في مواضع كثيرة في القرآن الكريم"[1]. وأنّ "الانتقال من أسلوب إلى أسلوب يستعمل قصدًا للمخالفة بين المنتَقَل عنه والمُنتَقَل إليه، لا قصدًا لاستعمال الأحسن: وعلى هذا فإذا وجدنا كلامًا قد استُعمل في جميعه الإيجاز، ولم يُنتقل عنه، أو استُعمل فيه جميعه الإطناب، ولم يُنتقل عنه، وكان كلا الطرفين واقعًا في موقعه قلنا: هذا ليس بحسن، إذ لم ينتقل فيه من أسلوبٍ إلى أسلوب"[2]. كما يرى أنّ "الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه، فإنّ ذلك دليل على أن السامع يملّ من أسلوب واحد، فينتقل إلى غيره؛ ليجد نشاطًا للاستماع. وهذا قدح في الكلام لا وصف له، لأنه لو كان حسنًا لما ملَّ"[3].

إنّ الزمخشري يقصد بالهدف من الانتقال تأكيد المعنى وتقويته، لما يتضمنه بالضرورة من إثارة لانتباه السامع وشحذ فكره، حين يفاجأ بضمير يعود على غير ما هو له، فيبذل من طاقاته الفكرية ما يكشف به ما يعود إليه، ثم يحاول أن يكشف السرّ في التفاوت بين الضمير وما يشار به إليه أو يدلّ عليه، وبذلك لا يظل السامع في موقف سلبي دائمًا، يتلقى من المتكلِّم أو الكاتب ما يقول دون جهد منه في استكناه مضمون ما يُقال. وأن يشارك إيجابيًّا في النشاط اللغوي حتى وإنْ كان سامعًا. بمعنى أنَّ المتلقي يصبح جزءًا أساسيًّا في إنتاج المعنى، وعنصرًا فعالًا في كشف مضمونه ودلالاته.

والزمخشري لم يتحدّث أو يحدّد بكلامه الكلام المطوّل أو المختصر كما فَهِم ابن الأثير، وإنّما تحدّث عن الخطاب الذي يحوي أسلوب الانتقال في الضمائر. كما أنّه لم يضع هذا الأسلوب معيارًا للحكم على جودة الخطاب، بمعنى يجب أن يحوي الخطاب هذا الأسلوب ليكون جيدًا كما فهم ابن الأثير. فثمَّةَ بعض الخطابات التي لا تحوي أسلوب الانتقال في

---

[1] ابن الأثير، **المثل السائر**، القسم الثاني. 136

[2] **ن.م.**، 136.

[3] **ن.م.**، 136.

الضمائر وهي حسنة. ولعلّ تفسيرات ابن الأثير وتأويلاته اللاحقة تتضمّن المعاني التي ذهب إليها الزمخشري، ولكنّ الزمخشري أوجز في كلامه، فجاء ابن الأثير ليطوّرها ويحلّلها مُستشهِدًا بالشواهد الشعريّة والنثريّة على هذه الأساليب.

يرى ابن الأثير أنّ الانتقال مقصور على العناية بالمعنى، بمعنى أن مقتضيات المعنى في النص هي التي توجب الانتقال لتحديد فائدة ما[1]. ويحاول من خلال الأمثلة كشف المعنى البلاغي الجمالي بنظرة كلية للمعنى والأسلوب، إذ يقول: "فأمّا الرُّجوع من الغيبة فكقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2} الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ{3} مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{4} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5} اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾".

"هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} بعد قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك، ولا تعبده؟ فلمَّا كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسّطه مع الغيبة في الخبر، فقال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}، ولم يقل: "الحمد لك"، ولمّا صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} فخاطب بالعبادة إصراحا بها، وتقربا منه عزَّ اسمُه بالانتهاء إلى محدود منها"[2]. وقد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب وفي آخرها من الخطاب إلى الغيبة لتعظيم شأن المخاطب[3].

وقد ورد في فصيح الشِّعر، كقول أبي تمام:

"ورَكبٍ يُساقون الرِّكاب زُجاجةٌ ... من السّيرِ لم تَقْصِد لها كفُّ قاطبِ
فقد أكلوا منها الغوارب بالسُّرى ... وصارتْ لهم أشباحُهم كالغوارب
يُصَرِّفُ مَسْرَاها جُذَيلُ مَشَارقٍ ... إذا آبه همٌّ عُذيقُ مغاربِ
يرى بالكعابِ الرُّودِ طَلْعَة ثائرٍ ... وبالعِرمِسِ الوجناءِ غُرّة آئِبِ

---

[1] انظر: ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني. ص136-137

[2] ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني. ص137

[3] انظر: **ن.م.**، 138

كـأنَّ بهـا ضِــغنًـا على كـل جـانـبٍ   من الأرض أو شـــوقًـا إلى كل جـانـبِ
إذا العيسُ لاقَـتْ بي أبـا دُلفٍ فقـد   تـقـطَّـعَ مـا بـيـني وبـين الـنـوائـبِ
هُنالِك تلقى الجُودَ من حيثُ قُطِّعت   تـمـائـمـهُ والمَـجـدَ مُـرخَى الـذوائـب

ألا ترى أنّه قال في الأول: "يصرِّف مسراها" مخاطبةً للغائب، ثم قال بعد ذلك: "إذا العيس لاقت بي" مخاطبا نفسه؟ وفي هذا من الفائدة أنه لما صار إلى مشافهة الممدوح والتصريح باسمه خاطبَ عند ذلك نفسه مبشرًا لها بالبُعد عن المكروه، والقرب من المحبوب، ثمّ جاء بالبيت الذي يليه معدولًا به عن خطاب نفسه إلى خطاب غيره، وهو أيضًا خطاب لحاضر، فقال: "هنالك نلقى الجود"، والفائدة بذلك أنّه يخبر غيره بما شاهده، كأنّه يصف له جود الممدوح، وما لاقاه منه، إشادةً بذكره، وتنويهًا باسمه، وحملًا لغيره على قصده، وفي صفته جود الممدوح بتلك الصفة الغريبة البليغة، وهي قوله: "حيث قُطِّعت تمائمه" ما يقتضي له الرجوع إلى خطاب الحاضر، والمراد بذلك أنّ محلّ الممدوح هو مألفُ الجود ومنشؤه ووطنه، وقد يراد به معنًى آخر، وهو أنّ هذا الجود قد أمن عليه الآفات العارضة لغيره من المنِّ والمطل والاعتذار وغير ذلك، إذ التمائم لا تقطّع إلّا عمّن أمنت عليه المخاوف"[1].

ب- في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر:

وهذا الأسلوب لا يستعمل للتوسّع في أساليب الكلام فحسب، وإنّما "يقصد إليه تعظيمًا لحال من أُجري عليه الفعل المستقبل، وتفخيمًا لأمره، وبالضدّ من ذلك فيمن أُجرِي عليه فعل الأمر.

فممّا جاء منه قوله تعالى: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2].

[1] ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني. ص140-142

[2] **سورة هود**: الآيتان 53-54.

فإنّه إنّما قال: ﴿أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا﴾، ولم يقل: وأشهدكم ليكون موازنًا له وبمعناه؛ لأنّ إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلّا تهاون بهم، ودلالة على قلّة المبالاة بأمرهم، ولذلك عُدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر؛ كما يقول الرجل لمن يبس الثّرى بينه وبينه: "أَشْهَد عليَّ أنّي أُحبُّك" تهكُّمًا به، واستهانة بحاله"[1].

وابن الأثير يرد الكلام في تأويله لأصل القاعدة العربية، ثم يبدأ بالتأويل والتعليل البلاغي من خلال معنى الخطاب لبيان الغاية من المخالفة، فالغاية لديه بيانية بلاغية اقتضتها حاجة المعنى. ولم يكن معنيًّا بالقاعدة العربيّة بقَدْر ما كان معنيًّا ببيان البعد الجمالي للغة وبيان دلالالتها ومعانيها الكلية لا الجزئية.

وأمّا الرجوع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر، "إنما يُفعل ذلك توكيدًا لما أجري عليه فعل الأمر، لمكانة العناية بتحقيقه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...﴾ [2].

وكان تقدير الكلام: أمر ربّي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كلّ مسجد، فعدَلَ عن ذلك إلى فعل الأمر، للعناية بتوكيده في نفوسهم، فإنّ الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب، إذ عملُ الجوارح لا يصحُّ إلا بإخلاص النية"[3].

ج- في الأخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضي:

وما يقصده بعطف المستقبل على الماضي المعنى البلاغي، وهو الإخبار عن ماضٍ بمستقبل، والغاية من ذلك في الخطاب، أنَّ المستقبل "يوضِّح الحال التي يقع فيها، ويستحضر

[1] ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني، 144-145

[2] **سورة الأعراف**: الآية 29.

[3] ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني، 145

تلك الصورة، حتى كأنّ السامع يشاهدها"[1]. ومن ذلك قوله تعالى: "﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[2].

فإنّه إنّما قال: (فَتُثِيْرُ) مستقبلًا، وما قبله وما بعده ماضٍ، لذلك المعنى الذي أشرنا إليه، وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة"[3].

يتحدّث ابن الأثير عن الخطاب الذي يهم المخاطب، وغايته استحضار الصورة لدى المخاطب، أعني أنَّ التحوّل يتمّ بناءً على مقتضيات المعنى في الخطاب، فإذا كان يهدف إلى استحضار صورة بلاغيّة جماليّة لدى المتلقّي عَمَدَ المبدع أو كاتب النص إلى هذا الأسلوب.

وإذا كان التخيُّل يقع في الفعلين (الماضي والمستقبل)، فإنّ ابن الأثير يرى أنّه في المستقبل "أوكد وأشد تخيُّلًا؛ لأنّه يستحضر صورة الفعل، حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه"[4]. ومن ذلك "قول تأبط شرًّا:

بأنّي قد لقيتُ الغولَ تهوِي   بسَهْبٍ كالصَّحيفة صَحْصَحان
فأَضْرِبها بلا دَهشٍ فَخرَّت   صَريعًا لليَدين وللجِران

فإنّه قصد أن يصوّر لقومه الحال التي تشجَّع فيها على ضرب الغُول، كأنّه يبصّرهم إيّاها مشاهدةً، للتعجب من جراءته على ذلك الهولِ، ولو قال: "فضربتها" عطفًا على الأول لزالتْ هذه الفائدة المذكورة.

(1) **ن.م.**، 145
(2) **سورة فاطر**: الآية 9.
(3) ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني. ص 146
(4) **ن.م.**، 147

ألا ترى أنّه لما قال تأبط شرًا: "فأضربُها" تخيل السامع أنّه مباشر للفعل، وأنه قائم بإزاء الغول، وقد رفع سيفه ليضربها، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي"[1].

أمّا الإخبار بالماضي عن المستقبل، ففائدته: "أنّ الفعل الماضي إذا أُخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعدُ كان ذلك أبلغ، وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأنّ الفعل الماضي يعطي من المعنى أنّه قد كان ووجد، وإنّما يُفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يُستعظم وجودها"[2].

ومن "أمثلة الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[3].

فإنه إنّما قال: "فَفَزِعَ"، بلفظ الماضي بعد قوله: "يُنْفَخُ" -وهو مستقبل- للإشعار بتحقيق الفزع، وأنّه كائن لا محالة؛ لأنّ الفعل الماضي يدلّ على وجود الفعل، وكونه مقطوعًا به"[4].

---

[1] ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني، 147

[2] **ن.م.**، 149

[3] **سورة النمل**: الآية 87

[4] ابن الأثير. **المثل السائر**. القسم الثاني، 149

خلاصة البحث:

1. تأخذ شجاعة العربية عند ابن جني - في الغالب - مفهومًا لغويًّا، إذ لجأ للتأويل اللغوي في معالجته لموضوعات الشجاعة؛ لأنّ ابن جني كان معنيًّا أكثر بالجانب اللغوي، وكانت القاعدة العربية في ذهنه مرجعيّة أساسيّة للنظر في النصوص. وكان منطلقًا في أغلب تأويلاته من العلامة الإعرابية. وتأخذ في بعض المواضع مفهومًا دلاليًّا وبلاغيًّا، وذلك من خلال تفسيره لظاهرة الالتفات في بعض الآيات القرآنية في كتابه "المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها".

2. كان ابن جني-في الغالب- يركّز على الألفاظ التي تمثّل محور رؤيته. ولعلّ السبب وراء ذلك أنّ ابن جني ينطلق من خلفيته اللغوية، وكان هدفه الحفاظ على قواعد اللغة، وتخريج ما يخرج من الكلام عن قواعد وسنن العرب في كلامهم.

3. أخذ ابن الأثير المصطلح اللغوي، وأدخله الحقل البلاغي ليكسبه دلالة بلاغية. وقد استفاد من الفارق الزمني بينه وبين ابن جني، واطّلاعه على كثير من اللغات والثقافات والمرجعيات النقدية.

4. لم يكن ابن الأثير بوصفه بلاغيًّا وناقدًا معنيًّا بما خرج عن قواعد اللغة، وإنّما كان معنيًّا ببيان جماليات اللغة. واستطاع بذلك التأويل من خلال نظرة شمولية للنص، إذ كان معنيًّا بالبعد البلاغي الجمالي للغة لا التواصلي، فلم يكتفِ بالقول مثلًا: هذا الكلام يستخدم للتوسّع في كلام العرب، كما قال ابن جني في الحذف، بل كان يستخرج الغاية الدلالية الجمالية للخطاب معتمدًا على النص بوصفه مرجعًا أساسيًّا في تأويله، ومراعيًا أبعاد النص من مبدع ومتلقٍ وسياقات (اجتماعية ودينية وثقافية) في الوقت نفسه.

المصادر والمراجع:

ابن الأثير، ضياء الدين. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة. دار نهضة مصر: القاهرة. د.ت

ابن جني، أبو الفتح عثمان. **الخصائص**. تحقيق: محمد النجار. ط4. الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة. 1999

_____. **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، المكتبة الوقفية، 2009، waqfeya.com

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. **لسان العرب**. دار صادر: بيروت. د.ت

أبو المكارم، علي. **أصول التفكير النحوي**. دار القلم: بيروت. 1973

جلال شمس الدين. **التعليل النحوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيره عند البصريين: دراسة إبستمولوجية**. مؤسسة الثقافة الجامعية: الإسكندرية. 1994.

الزمخشري، محمود بن عمر. **الكشاف**، ط.3، دار الكتاب العربي: بيروت، books.rafed.net

ناصيف، علي النجدي. **من قضايا اللغة والنحو**. مكتبة نهضة مصر: القاهرة. د.ت